

آليات التماسك النصي ودورها الدلالي في رسالة الإمام علي (ع) لوالي البصرة عثمان بن حنيف
الأنصاري

The Mechanisms of Textual Coherence and its Implicational Role in the Emam Ali's Letter to the Governor of Basra Otman Bin Honeif Alansari

د. رسول بلاوي

(أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها في

جامعة خيلج فارس، بوشهر - إيران)

r.ballawy@pgu.ac.ir

تاريخ الإرسال: 2020/06/05	تاريخ القبول: 2020/08/17	تاريخ النشر: 2020/09/20
---------------------------	--------------------------	-------------------------

الملخص:

يُعتبر التماسك من أهم مقومات النص الأدبي، إذ يؤدي إلى تأطيره وتشكيل بنية متماسكة ذات ارتباط وثيق من خلال علاقة المفردة بما جاورها، وعلاقة العبارة مع سائر العبارات الأخرى. ومن النصوص التي تمتاز بهذا البناء المتماسك والمنسجم هي رسالة الإمام علي (ع) لوالي البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري؛ فهذه الرسالة ذات قيمة فنية من حيث البناء والمضمون وتعد ثروة جليلة تستحق البحث والتحليل. إننا في هذه الورقة البحثية اعتماداً على المنهج الوصفي - التحليلي، نسعى إلى دراسة آليات التماسك النصي في هذه الرسالة، وبيان دورها في تحقيق التماسك والاتساق؛ كما نهدف إلى معرفة مكونات النص وتحليل علاقاته الداخلية، ومدى تماسكه وتناسقه في السياق. توصل البحث إلى أن هذه الرسالة المرشحة لهذه الدراسة تتسم بإطار منسجم ومتناسك، وترتبط أجزائها بشكل منظم من خلال توظيف وسائل فنية تساهم في تماسك البنية ونقل الفكرة المقصودة.

الكلمات المفتاحية: النص، التماسك، الدلالة، الإمام علي (ع).

Abstract

Coherence is one of the important elements in literary texts because it limits the text and forms a coherent structure which is interrelated closely through the relationship between the word and its next one and the phrase and its next phrase. One of the texts which is significant in this coherent and cohesive structure is the Emam Ali's letter to the governor of Basra, Otman Bin Hineif Alansari. This letter is a great work of art regarding its structure and content and it is a great treasure that worth studying we, in this descriptive analytical study try to survey the textual coherence in the text of the letter and find its role to acquiring coherence and congruity.

Also, we aim to find out the elements of the text and to analyse its internal relationships and its level of coherence and congruity. We concluded that this chosen letter is characterized in a coherent and cohesive framework and its parts are related constantly based on applying technical means that helps uniting the structure and transferring the meant purposes.

Keywords: Text, Coherence, Implication, Imam Ali

المقدمة:

اهتمّ الباحثون باللغات المنطوقة والمكتوبة باعتبارها أهمّ وسيلة تواصلية بين البشر، وفي بدايات السبعينات شهدت البحوث اللسانية تطوراً ملحوظاً نتج عنه ميلاد فرع معرفي جديد عُرف باسم علم النصّ أو لسانيات النصّ، وموضوعه الأساسي هو النصّ بوصفه أعلى وحدة لغوية في الدراسات النصّية، حيث دعت هذه الأخيرة إلى تجاوز الجملة وحدودها الضيقة باعتبارها الأداة الوحيدة في التحليل التي تبني فضاءً أوسع ألا وهو النصّ الذي يحتاج في تكوينه وتحليله إلى تضافر العديد من العناصر النحويّة والدلالية والتداولية¹. وهذه العناصر تؤدّي إلى تماسك النصّ وتناسقه.

التماسك النصّي هو «العلاقات الخطيّة واللاخطية التي تسهم في الربط والوصل بين وحدات النص»². وقد تكون هذه العلاقات لفظية وقد تكون معنويّة، ومن أبرز الأدوات التي تحقّق تماسك النصّ هي وسائل الربط، والحذف، والإحالة، والتكرار والسجع. فقد يتمثّل هذا التماسك بشكل منطقي، أو زمني، أو دلالي، أو صوتي؛ وسوف نعالج كلّ منها في هذه الورقة البحثية التي اعتمدت في خطّتها على المنهج الوصفي - التحليلي الذي يقوم برصد هذه الظواهر وتحليلها تحليلًا جماليًا.

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على كيفية ترابط نصّ رسالة الإمام علي (ع) لعثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامله في البصرة وقد بلغ الإمام أنّه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها غنيهم مدعو وعائلهم مجفوّ، فمضى إليها مسرعاً، فكتب عليه السلام هذه الرسالة معاتباً له بشدّة، يخاطبه ويوبّخه فيها على مشاركته في مثل هذه الضيافة. عثمان بن حنيف الأنصاري كان من أصحاب النبي محمد (ص) وقد شارك في المعارك الإسلامية وكان له رأي ثاقب ومعرفة جامعة بالأمور فؤله الإمام علي (ع) على البصرة لأهمّيّتها الإستراتيجية. ومن هنا جاءت ردّة فعل الإمام علي (ع) لحسن ظنّه بهذه الشخصية ومكانتها في الإسلام.

- ما هي أبرز آليات التماسك النصي في رسالة الإمام علي (ع) الموجهة لوالي البصرة؟

- ما هي الوظائف الدلالية التي تؤديها هذه الآليات في رسالة الإمام (ع)؟

التماسك النصي:

جاء في أساس البلاغة للزمخشري: «مسك: أمسك الحبلَ وغيره، وأمسك بالشيء ومسك وتمسك واستمسك وامتسك، وأمسك عليك زوجك وأمسكتُ عليه ماله: حبسته، وأمسك عن الأمر: كف عنه، وأمسكت واستمسكت وتماسكت أن أقع من الدالة وغيرها، وغشيني أمر مقلق فتماسكتُ، وفلان يتفكك ولا يتماسك، وما تماسك أن قال ذلك: وما تمالك، وهذا حائط لا يتماسك ولا يتمالك وحفر في مسكة من الأرض: في صلابة»³؛ فيأتي التماسك في اللغة مقابل التفكك وهذا يعني الترابط التام، والشدة والصلابة.

وفي هذا السياق نذكر أن «التماسك مصطلح مترجم من الكلمة الإنجليزية Cohesion وقد وقع في ترجمته بعض الاختلاف كالعادة في عملية انتقال المصطلحات العلمية مترجمة إلى العربية»⁴، والتماسك النصي هو «ترابط الجمل في النص مع بعضها بعضاً بوسائل لغوية معينة»⁵. هذا التماسك «يقوم على خيوط وأدوات بعضها من النحو وبعضها من المحتوى وبعضها من الموقف، وهي التي تجمع عناصره المتباعدة المختلفة في سياق واحد متماسك»⁶، وعلى ذلك نخلص إلى أن النص بنية لغوية «متتالية من الكلمات تكون ملفوظاً مُنجزاً»⁷.

إن التماسك النصي «لا يتحدد على مستوى علاقات الترابط بين المتتاليات والجمل فحسب، بل يتحدد كذلك على مستوى البنية الكلية للنص باعتبارها عملاً كلياً يحدد معنى النص فهي ترتبط بالموضوع الكلي له، ويتسم بالبنية من جهة تعدد مستوياتها وتدرجها في النص الواحد وعلاقة كل بنية تسبقها بما تليها»⁸. ومن خلال إمعاننا في رسالة الإمام علي (ع) لعثمان بن حنيف، وجدنا أن هذا النص يتميز بتماسكه وتناسقه وانسجامه، فتم ترشيحه كمحور لهذه الدراسة التي تسعى إلى الكشف عن جماليات هذه الرسالة ومدى توفر آليات التماسك فيها ودورها الدلالي الفاعل في نقل الفكرة.

الربط من أهمّ وسائل التماسك النصي، فالنصّ مجموعة من الجمل المتتالية ويجب أن تكون هذه الجمل مترابطة مع بعضها حتى تكون نصّاً متماسكاً متناسقاً. والربط كما يراه هاليدي ورقية حسن هو تحديد الطريقة التي يترابط بها اللاحق من الألفاظ مع السّابق بشكل منظم⁹.

يُعدّ الربط من أبرز وسائل الاتّصال بين مكونات التراكيب اللغويّة، إذ نجد العلماء العرب القدامى فطنوا إلى قيمة هذه الوسيلة في تحقّق الاتّصال بين أركان التراكيب اللغوية وعناصرها¹⁰؛ فالجملة «في الأصل كلام مستقل، فإذا قصدت جعلها جزءاً من الكلام فلا بدّ من رابطة تربطها بالجزء الآخر»¹¹.

للربط في العربية أدوات لفظية من أهمّها: الواو، والفاء، وأو، وثمّ، ولكن، وبل، وغيرها، ولكن أشهرها استعمالاً وشيوعاً الواو، ومن المعروف حقّاً أنّ حرف الواو يفيد المشاركة في الحكم، أي اشتراك ما قبله بما بعده حكماً أو فعلاً، لذلك لا غرو أن يعبّده الباحثون في علم اللغة النّصي من أهمّ وسائل اتساق النصّ¹². وفي رسالة الإمام علي (ع) نجد الكثير من أدوات الوصل التي تربط الجمل بعضها ببعض، منها النصّ التالي:

«يَا بَنَ حُنَيْفَ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادُبَةٍ، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا»¹³

قوله عليه السلام "فأسرعت إليها" يشير إلى لزوم التّأني والتّفكّر ودراسة الأمور قبل الإقدام. فالإسراع إلى هذه المجالس، والانغمار في ملذّاتها والإكثار من الطعام والشراب فيها، أمر غير محبّد للوالي الذي يتولّى مسؤولية اجتماعية ودينية في المجتمع الإسلامي فلا بدّ أن يكون أسوة يُقتدى بها الآخرون. استخدم الإمام حرف الفاء في عبارة (فأسرعت إليها) لكي يربطها بما قبلها من قول، وهذا الحرف هنا يوحي بالاستتباع والاستنتاج، حيث السرعة في الإجابة جاءت مباشرة بعد الدعوة دون تأنّي وتمعّن، كما هي نتيجة حاصلة أيضاً بعد هذه الدعوة الموجهة. وفي المقبوس التالي عطف طائفة من الكلمات بعضها على بعض:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعْيُنُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»¹⁴

لقد عطفَ الإمام (ع) جملة من المفردات التي ترتبط دلاليًا مع بعضها البعض (ورع، واجتهاد، وعفة، وسداد)، فكلّها تؤدّي إلى نتيجة واحدة كان يطمح الإمام لتحقيقها من خلال اجتماعها وتتابعها. كما استخدم (ولكن) للربط في مقام الاستدراك، فالإمام يعرف جيّدًا عدم تمكّنهم من القيام بهذه الأمور، لكنّه استدرك كلامه طالباً منهم أعانته في أمور أسهل بالنسبة للإنسان المؤمن.

«وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمَحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ»¹⁵

وعلى ضوء معاني حروف العطف نجد أنّ حرف الواو الذي تصدر في هذا المقتبس يحمل معنى السببية والتعليل وذلك من خلال تسليط أداة الشرط (ولو) على الجملة، فالإمام لم يشاء الاهتداء إلى هذه الطريق، ولو شاء لاهتدى، والسبب في كلّ ذلك عدم الإرادة والرغبة. ثم عطفَ 3 عبارات (مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمَحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ) بشكل موجز ومترابط. وبالإضافة إلى أهمية الواو في تحقّق الترابط بين أجزاء النصّ، فهذا الحرف يعمل على تكشيف الخطاب عبر عملية الاختزال أيضاً، وهذا يعني أنّ هذا الحرف لم يكن مجرد وسيلة للربط بل هو وسيلة لإثارة الخطاب وفعاليته وذلك من خلال إلغاء التعبيرات المعبرة عن الفكرة ذاتها. ومن خلال التمعّن في النصّ نجد المُرسِل حذفَ عبارة (ولو شئتُ لاهتديت الطريق إلى) قبل كل عبارة اعتماداً على ما سبق وتوخياً للتكشيف والاختزال.

«فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبَرّاً، وَلَا أَدْخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرّاً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي تَوْبِي طِمْرًا»¹⁶

إن حرف الواو جعل من عبارات الرسالة نسقاً متّصلاً، وفضلاً عن تكرار الواو استعان المُرسِل بحرف (لا) الذي يدلّ على النفي والرفض. إنّ الواو المتكرّرة في هذا النصّ لم تكن مجرد وسيلة ربط، وإنّما جعلت الخطاب أكثر تأنّقاً وتناسقاً، وما ساعدَ هذا التأنّق والتناسق حرصُ الإمام على السجع الذي يشدّ المتلقي للاستمرار والتواصل.

«فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عِلْفُهَا، أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا نَقْمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرِكَ سُدًى، أَوْ أُهْمَلُ عَابِثًا، أَوْ أُجَرَّ حَبْلُ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ!»¹⁷

فقد ألح عليه السلام على تكرار حرف (أو) لترابط الجمل وعطف بعضها على بعض، وهذا الحرف ينهض في النصّ بدور الربط بين المعاني، لذا فإنّ العلاقة بين كلّ عبارة، والعبارة التي قبلها علاقة تبعية، بحيث تأخذ التراكيب بعضها برقاب بعض لتكتمل الفكرة.

الإحالة:

لقد أسهمت الإحالة في إضفاء أجواء التماسك في النصّ، وهي في لسانيات النصّ «تعدّ رابطاً مهماً ذا دور فعال في اتّساق النصّ وربط أجزائه بعضها ببعض وهي لا تخضع لقيود نحوية، وإنّما تخضع لقيود دلالية تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال»¹⁸. فالإحالة «علاقة معنوية بين ألفاظ معينة وما تشير إليه من أشياء أو معانٍ أو مواقف تدلّ عليها عبارات أخرى في السياق، أو يدلّ عليها المقام، وتلك الألفاظ المحيطة تعطي معناها عن طريق قصد المتكلم»¹⁹. ومن أهمّ الإحالات التي تصادفنا في هذه الرسالة هي إحالات وإشارات لنصوص سابقة تربط نصّ الرسالة بنصوص متقدّمة عليها. من الإحالة إلى الآية الشريفة:

«طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمُّهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرَ أَسْهَرِ عَيُونِهِمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، تَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمَّهَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شَفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ» ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: 22)²⁰

فالإمام (ع) بعد أن عدّ للمتلقّي خصائص هذه النفوس المؤمنة، ختم كلامه بهذه الآية المباركة التي تُعتبر توقيعاً وتأييداً لكلامه السابق. وفي النصّ التالي تمثّل بيت من الشعر لم يذكر شاعره:

«هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشْعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأُطْعِمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّعْبِ؛ أَوْ أَبَيْتَ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بَطُونٌ غَرَّتِي وَأَكْبَادُ حَرَى، أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ
وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بِيْطَنَةً وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنُ إِلَى الْقَدِّ»²¹

فهذا البيت الشعري يلخص فكرة الإمام علي (ع)، ويساعد المتلقّي على استيعاب الرؤية. وفي المقبوس التالي يقول:

«إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ»²²

عبارة (إليك عني يا دنيا) تحيلنا إلى حديثه الذي يقول فيه: (يا دنيا طَلَقْتَ ثلاث لا رجعة فيها)؛ وعبارة (حبُّك على غاربك) فيها إحالة إلى قوله في خطبة الشقشقية عندما يصف عدم رغبته في الخلافة: (لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لَا يُقَارُوا عَلَى كُظَّةِ ظَالِمٍ، وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا). فهذا التعالق النصِّي والإحالات إلى نصوص متقدِّمة على زمن كتابة هذه الرسالة تساهم في ترابط النصِّ وتماسكه وفاعليته الدلالية.

- الضمائر: تكتسب الضمائر دوراً فعالاً عبر نيابتها عن الأسماء والجمل المتتالية فقد يحلّ الضمير محلّ كلمة أو جملة أو عدّة جمل ولا تتوقف أهميتها عند هذا بل تتعدّاه على كونها تربط بين أجزاء النصّ المختلفة شكلاً ودلالة. تتفرّع الضمائر في اللغة العربية حسب الحضور في المقام أو الغياب إلى فرعين كبيرين متقابلين هما: ضمائر الحضور وضمائر الغياب، إذ تقوم تلك الضمائر مقام الأسماء غير أنّ لها محتوى دلالي أقل²³. الضمائر من أبرز الأدوات التي تُستعمل للإحالة على كيانات معطاة، وتنقسم هذه الضمائر إلى:

- ضمائر وجودية مثل: أنا، نحن، أنت، أنتم، أنتن، هو، هي، هما، هم، هنّ.

- ضمائر ملكية مثل: صديقي، صديقنا، صديقك، صديقكم، صديقه، صديقهم. تكرار الضمير في النصّ يكشف عن الذات المأزومة بهموم الآخر، فضلاً عن دوره الفاعل في إحداث الإيقاع الذي تأنس به النفس فتظلّ مشدودة إلى ما يرسله المرسل في نصّه:

«أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَأَ لَهُمْ فِي جُبُوبَةِ الْعَيْشِ!»²⁴

جاء بضمير الياء متّصلة بكلمة (نفسي) والتي تحيلنا على نفس المرسل، ثم كرّر ضمير (هم) مرتين (أشاركهم ولهم) والتي تحيلنا على المرسل إليه الجماعي، فهذه الرسالة موجّهة إلى مجموعة من المخاطبين وإن كُتبت لتبويخ عثمان بن حنيف.

«تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ»²⁵

فقد حدّد الإمام فعل "تستطاب" و"تُنقل" بالمخاطب من خلال ضمير الكاف، فهو وحده دون الفقراء تُستطاب له وتُنقل له، وهذا ما أبغض الإمام. وفي المقبوس التالي يقول:

«فَوَ اللَّهُ مَا كُنْزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبِيراً، وَلَا أَدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرّاً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا»²⁶

فالضمائر الواردة في هذا النصّ هي التاء في (كنزتُ وأدّخرتُ وأعددتُ) والياء في (ثوبي) وكلاهما يعود إلى المرسل، ثم ضمير (كم) المتصل في (دنياكم) وهو يحيلنا على المخاطب المرسل إليه، ومن خلال إضافة هذا الضمير إلى الدنيا أراد الإمام أن ينقل رسالة عميقة للمتلقي، فهذه الدنيا لكم وليست لي فلا يمكن لها أن تغريني بمغرياتها، أمّا الهاء في (غنائها) فهو يعود إلى الدنيا. فهكذا نجد في هذا المقبوس القصير تتراحم الضمائر لكي تؤدي دور الترابط والتماسك بين النصّ.

«فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هُمُّهَا عَافُهَا، أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقْمُمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلَهُوْ عَمَّا يُرَادُ بِهَا»²⁷

في هذا النصّ جاء ضمير التاء في (خُلِقْتُ)، ثم الياء في (ليشغلني) وهما يحيلان المتلقي على المرسل أي الإمام عليه السلام، وضمير (ها) المتكرر في (هُمُّهَا؛ عَافُهَا؛ شُغْلُهَا؛ تَقْمُمُهَا؛ أَعْلَافِهَا؛ بِهَا) يعود إلى البهيمة المربوطة.

-أسماء الإشارة: وهي وسيلة من وسائل الإحالة وقد وُضعت لتدلّ على مسمّى مشار إليه بعيد أو قريب. «تقوم أسماء الإشارة بالربط القبلي والبعدي، وإذا كانت أسماء الإشارة بشتى أصنافها محيلة إحالة قبلية، بمعنى أنّها تربط جزءاً لاحقاً بمجرد سابق، ومن ثم تساهم في اتّساق النصّ، فإنّ اسم الإشارة المفرد يميّز بما يُسمّى الإحالة الموسّعة أي إمكانية الإحالة إلى جملة بأكملها أو متتالية جمل»²⁸.

«أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرِيهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدَرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعْيُنُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»²⁹

اسم الإشارة (ذلك) يحيل المتلقي إلى ما تقدّم من الكلام وهو اكتفاء الإمام من الدنيا بطمرين ومن الأطعمة بقرصين، فقد لخصّ كلّ هذا باسم الإشارة، وربط بين ما تأخّر من الكلام بما تقدّم عليه. فهذا الحضور له أثر موحٍ في تحقيق تماسك النصّ واتّساقه، وربط اللاحق بالسابق من الجمل. وقد استخدم اسم الإشارة في ما يلي أيضاً:

«لَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفًى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ»³⁰

فقد أشار إلى (العسل والقَمْح والقَز) بـ (هذا) وهو اسم إشارة يدلّ على القريب، ليؤكد للقارئ أنّ هذه الأمور قريبة لي إن شئت، ولا يصعب عليّ حصولها وتوفرها لكنني ابتعدتُ عنها طوعاً. وفي ما يلي نجده يقول:

«وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ»³¹

فاسم (هذا) يحيل القارئ إلى ما تقدّم ذكره في الرسالة، فقد استغنى عن ذكره من خلال اسم الإشارة. وهذا يحقق الإيجاز والاقتصاد اللغوي الذي يضيف جماليةً فنيةً على تراكيب النصّ، ويبعده عن الركاقة والضعف.

الأسماء الموصولة: الأسماء الموصولة تساهم بقدر كبير في تماسك النصّ وترابطه كما تُعتبر من أهم أدوات الإحالة حيث تؤدي دور الربط عند إرادة وصف المرجع بصفة تدلّ على مدحه أو ذمه³². «الاسم الموصول إمّا أن يكون اسماً خاصاً، أو عامّاً، يحتاج إلى صلة وعائد، والصلة عليها أن تكون جملة خبرية، وأنّ العائد ضمير يعود على الاسم الموصول»³³. ومن خلال تفتيشنا عن اسم الموصول في هذه الرسالة المدروسة وجدناه يرد بقلّة قياساً مع سائر أدوات الإحالة كالضمائر وأسماء الإشارة. في النصّ التالي استخدم (الذين) مرتين:

«أَيُّنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتَهُمْ بِمَدَاعِبِكَ؟! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِرَخَافِكَ؟!»³⁴

(الذين) اسم موصول خاص يُستخدم للجمع المذكر، وهو اسم مبني يؤتى به لربط الكلام خاصة ربط الأسماء بالأفعال، وقد استخدمه الإمام (ع) هنا مع ما بعده للوصف والتعيين، وقد ربط من خلاله فعلي (غررتهم، وفتنتهم) بما قبلهما. وقد جاء استخدام (ما) الموصولة في موضعين:

«فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضُمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ»³⁵

وأما الموضع الثاني الذي استخدم فيه (ما) الموصولة فهو في النصّ التالي:

«كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظْلَمَتْهُ السَّمَاءُ»³⁶

(ما) الموصولة تُستخدم لغير العاقل المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث بشكل واحد؛ وتعدّ من الأسماء المبهمة التي دائماً تحتاج إلى تعيين مدلوله وإيضاح المراد منه بصلة تُفيد التعريف. فإذا نظرنا إلى الشاهدين السابقين سوف

نرى إبهام (ما) الموصولة في كلا الجملتين، لكن الصلة التي جاءت بعدها (تقضمه، وأظللته)، أبانت عن هذا الإبهام والغموض.

أسماء الشرط: أو ما يُعبّر عنها بالتماسك المنطقي، هي أدوات يؤتى بها للربط بين فعل الشرط وجوابه، أي الربط بين السبب والنتيجة، وبناء هذه العملية يتم عبر ترابط عقلي متماسك، ففي الواقع الشرط تعليق شيء بشيء آخر بحيث إذا وُجد الأول وُجد الثاني.

أسلوب الشرط «ينبني - بالتحليل - على جزئين، الأول: مُنْزَل منزلة السبب، والثاني: مُنْزَل منزلة المسبب، فيتحقق الثاني إذا تحقق الأول، وينعدم الثاني إذا انعدم الأول، لأن وجود الثاني معلق على وجود الأول»³⁷. وقد ورد هذا الأسلوب كثيراً في رسالة الإمام علي (ع):

«فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظَةُ، وَمَا أَتَقَنَّتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلَّ مِنْهُ»³⁸

استخدم (ما) في كلا التعبيرين وهي أداة شرط لغير العاقل، ففي التعبير الأول، جواب الشرط (فالفظه) يرجع تحققه إلى (اشتبه عليك علمه)، فإذا تحقق فعل الشرط وجب تحقق جواب الشرط أيضاً. وفي التعبير الثاني تحقق جواب الشرط (فَنَلَّ مِنْهُ) مرهون بتحقيق فعل الشرط (أَتَقَنَّتَ).

«وَكَاَنِّي بِقَاتِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ»³⁹

(إذا) هنا أداة شرط تفيد الزمان، ففي هذا النصّ اللاحق من الكلام (فقد قعد به الضعف) يحيلنا على السابق من الكلام وهو (إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب). «وَاللَّهِ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَّا وَلِيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أُمَكَّنْتَ الْفُرْصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا

مَنْ وَطِئَ دَحْضَكَ زَلَقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجْجَكَ غَرِقَ، وَمَنْ أَزُورَ عَنْ حَبَائِلِكَ

وَفُقَّ»⁴⁰

(لو) هي حرف امتناع لامتناع، أي امتناع الجزء لامتناع الشرط، ففي كلا الشرطين السابقين نجد الإحالة تتجسّد في الامتناع، فلم يتحقق اللاحق لعدم تحقق السابق من الكلام.

«وَاللّٰهُ لَوْ كُنْتَ شَخْصًا مَّرْثِيًّا، وَقَالَ بَأْسًا حَسِيًّا، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِ غَرَزْتَهُمْ بِالْأَمَانِي، وَأُمَمَ الْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكَ أَسْلَمَتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأُورِدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ»⁴¹

ففي هذا النصّ أيضاً نجد الامتناع في تحقّق كلا الطرفين، فالدنيا لم تكن شخصاً مرثياً، وقال بَأْسًا حَسِيًّا، حتى يقيم الإمام عليها حدود الله لما فعلته بالعباد، فقد امتنع تحقّق جواب الشرط بسبب امتناع وعدم تحقّق الجزء الأول. والفعل الماضي المتجسّد بـ (كُنْتَ) يلقي بظلاله على المقطع، ممّا يضيفي على النصّ تماسكاً لافتاً للنظر.

التماسك الدلالي:

التماسك الدلالي كما يقول الزركشي: «جعل أجزاء الكلام آخذاً بأعناق بعض، فيقوِّي بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»⁴². والجدير بالذكر أنّ ظاهرة الحذف والاقتران أو المصاحبة اللغوية تُعتبر من أهمّ أنواع التماسك الدلالي.

- ظاهرة الحذف

ظاهرة لغوية اشتركت فيها جميع اللغات بحيث تُحذف بعض العناصر المكرّرة في الكلام ويُفهم من خلال المعنى. يتمّ الحذف إذا كانت هناك قرائن معنوية أو مقالية توجي إليه وتدلّ عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره، فالسياق من أساسيات الحذف⁴³.

صرّح عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز إلى أنّ الحذف وسيلة من وسائل تماسك النصّ، وهو دعامة رئيسة في نظرية النظم، فقد قال فيه «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدر أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وتكون أتمّ ما تكون بياناً إذا لم تبين»⁴⁴. وقد عمد عليه السلام على استخدام ظاهرة الحذف في هذه الرسالة لأغراض بلاغية ودلالية. استفتح النصّ بخطاب عثمان بن حنيف قائلاً:

«أَمَّا بَعْدُ، يَا بَنَ حَنِيفَ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادُبَةٍ، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا»⁴⁵

في هذا الخطاب قام الإمام (ع) بحذف اسم المخاطب واكتفى باسم أبيه توبيخاً له على ما قام به، وبما أن اسم الشخص يحمل معه دلالات توحى بالألفة والاستئناس فقد أعرض الإمام عن ذكره، كما وقد كرّر ذلك في الرسالة مرة أخرى تذكيراً لما مرّ:

«فَاتَّقِ اللَّهَ يَا بَنَ حَنِيفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ»⁴⁶

فنبرة الخطاب تتطلب حذف اسم (عثمان) من الرسالة والاكتفاء باسم أبيه حتى لا يشعر بالتعاطف والرحمة، وقد يكون هذا الخطاب أشدّ توبيخاً وأمضى تأثيراً على المتلقي حتى يعرف مكانته وحسبه ونسبه، ويلزم حدوده.

«أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِئِهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدَرُونَ عَلَى ذَلِكَ»⁴⁷

ويقصد بـ (على ذلك) قوله المذكور سابقاً وهو الاكتفاء من الدنيا بطمرين ومن الطعام بقرصين، فقد اختصر عليه السلام كلامه بهذا التعبير لعدم الفائدة في التكرار.

«أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ»⁴⁸

والأصل في العبارة التي جاءت بعد فعل القول هو: (هذا أمير المؤمنين)، لكن الإمام لعدم اكترائه بهذا اللقب قام بحذف اسم الإشارة الذي قد يوهم القارئ بشيء من التفاخر والاكتراث، فمثل هذه الألقاب لا تعني له شيئاً.

«اعْزُبِي عَنِّي! فَوَاللَّهِ لَا أَذِلُّ لَكَ فَتَسْتَذِلِّي، وَلَا أَسْلَسُ لَكَ فَتَقْوَدِينِي»⁴⁹

في هذا المقبوس يخاطب الدنيا فيقول لها: ابتعدي عني، فلا أترك لك مجالاً لمذلتي، ولا أستسلم لك فتقوديني (إلى حيث شئت من المزلات والمataهات). لكنه عليه السلام بترّ كلامه بعد فعل (فتقوديني) ليبقى الخطاب مفتوحاً على العديد من التأويلات اعتماداً على المتلقي. وفي ما يلي يقول:

«إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِئِهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ»⁵⁰

ففي عبارة (ومن طعمه بقرصيه) قام بحذف فعل (قد اكْتَفَى) لعدم الضرورة في ذلك واعتماداً على ما سبق من كلامه. وفي تعبيره التالي:

«تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ»⁵¹

في الجملة الثانية (وتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ) قام بحذف الفاعل لعدم الرغبة في الكشف عنه وعدم الاكتراث بهذا الجانب، فما كان يهمّه هو الوالي عثمان بن حنيف

وتصرّفه في تلبية الدعوة، أمّا الكشف عن الداعي وتوبيخه فليس من اهتمامات الإمام. ففي مثل هذا السياق يمكن للمتلقي أن يبعث المفردات المحذوفة اعتماداً على ما برز في النصّ، ففي الحذف يكون الاعتماد على المتلقي واستيعابه في خلق المفردات.

الاقتران أو المصاحبة اللغوية

الاقتران اللغوي يُعدّ من أبرز عناصر التماسك النصّي، ويربط بين بعض الوحدات المعجمية المنفردة، ويعرّفه محمد خطّابي بقوله «هو توارد زوج من الكلمات بالفعل، أو بالقوّة نظراً لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك»⁵². وقد يؤدّي الاقتران إلى «الطريقة التي يمكن من خلالها انتظام الكلمات معاً وإلى القيود المستعملة لبيان كيفية تضام الكلمات معاً، مثل حروف الجر ومعمولاتها، والأفعال مع الأسماء»⁵³. إنّ اقتران الكلمات بعضها ببعض يضيف وحدة على النصّ وشعوراً بالانسجام والاتساق. وقد نجد الإمام (ع) اعتنى في هذه الرسالة عناية شديدة بالمصاحبة اللغوية وانتقاء مفردات تنتمي إلى حقل دلالي واحد. جاء في المقبوس التالي:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»⁵⁴

فقد استخدم أربع 04 مفردات متتالية (وَرَعٍ، وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ، وَسَدَادٍ)، وهي مفردات توحى برؤية واحدة وتنتمي إلى حقل دلالي واحد، فالإمام يعرف جيداً عدم استطاعة الآخرين في التأسّي بسلوكياته، لكن يطلب منهم أن يلتزموا بأمر هي من أبسط متطلبات الإيمان.

«وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدِ جَدَثٍ، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةُ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدًا حَافِرِهَا، لِأَضْعَظَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ، وَسَدَّ فُرْجَهَا التُّرَابُ الْمُتْرَاكِمُ»⁵⁵

في هذا النصّ استخدم الإمام (ع) مفردات كلّها توحى بالموت والخواء: (جدث، ظلمة، وحفرة، فسحة، حافر، الحجر، المدر، فُرج، التراب)، فهذه المفردات تحيل القارئ على عالم القبر وظلمته، وهي مفردات تحمل معها إسقاطات نفسية تجعل النصّ متماسكاً مترابطاً.

«وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفًى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ»⁵⁶

في هذا المقبوس نرى مفردات (مُصَفًى، وَلُبَابِ، ونسائج) ثم (العسل، القمح، والقز) تشكّل بؤرة دلالية واحدة ترتبط بعضها ببعض لتكمّل الفكرة المقصودة. «أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا، وَالزَّوَائِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا، وَالنَّبَاتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُودًا، وَأَبْطَأُ خُمُودًا»⁵⁷

ففي هذا النصّ أيضاً نجد مفردات تنتمي إلى حقل دلالي واحد، ف«الشجرة البريّة، والروائع الخضرة، والنباتات العذبة) و(أصلب عُودًا، وأرقّ جلودًا، وأقوى وقودًا، وأبطأ خُمودًا) تشكّل مصاحبة لغويّة تساهم في ترابط النصّ وتماسكه وفاعليته في ترسيخ الفكرة لدى المتلقي.

الانسجام الصوتي

الانسجام الصوتي يتمثّل بال تكرار والسجع. وفي ما يلي سوف نعالج ظاهرة التكرار والسجع في رسالة الإمام علي (ع).

- ظاهرة التكرار

يراد بهذه الظاهرة «تكرير عنصر من العناصر المعجمية الاستعمالية بعينه أو بمرادفه أو شبه مرادفه في النصّ الأدبي»⁵⁸. وبناءً على وظيفة التكرار النصّية يقول صبحي إبراهيم الفقيهي أنّه «إعادة لفظ أو عبارة أو جملة أو فقرة وذلك باللفظ نفسه أو الترادف لتحقيق أغراض كثيرة أهمّها تحقيق التماسك النصّي بين عناصر النصّ المتباعدة»⁵⁹. وعدّ البعض التكرار «وسيلة مهمّة لتكوين النصّ، ولكنه لا يقدّم شروطاً كافية وضرورية؛ لأنّه يمثّل تتابعاً من الجمل تتابعاً جملياً متماسكاً»⁶⁰.

توظيف التكرار يأتي من أجل تحقّق العلاقات المتبادلة بين العناصر المكوّنة للنصّ، ويشترط لتحقيق هذه الوظيفة شرطاً أساسياً، وهو أن يكون لهذا العنصر المكرّر نسبة تردّد عالية في النصّ تميّزه عن نظائره، وأن يساعدنا رصده على فك شفرة النصّ وإدراك دلالاته، فهو يؤدّي إلى تحقيق التماسك النصّي وتناسقه من خلال امتداده في مساحات النصّ، وهذا الامتداد يحقّق عملية الترابط والتماسك بين عناصر النصّ⁶¹. فالتكرار فضلاً عن دوره الدلالي الفاعل في النصّ، فإنّه قادر أيضاً على تحقيق التماسك النصّي، وذلك عبر امتداد العناصر المتكررة. نقرأ في النصّ التالي:

«أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هُمًّا عَافِيًا، أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلًا نَقْمُهَا، تَكَثَّرَ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُزَادُ بِهَا، أَوْ أَتَرَكَ سُدًى، أَوْ أَهْمَلَ عَابِثًا، أَوْ أَجَرَ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ!»⁶²

يتكرر حرف الهمزة في هذه الأسطر 19 مرة، ومن شأن هذا التكرار الصوتي أن يرفد النصّ بنغمة صوتية طويلة تضيف اتساقاً يتناسب مع رؤية الإمام في إظهار الحزن والانفعال. فتكرار الهمزة في هذا النصّ وخاصة في حرف العطف (أو) تربط العبارات وتساهم في تماسكها وانسجامها.

«وَلَا دَعْنُ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا»⁶³

لقد كرّر عليه السلام حرف العين 4 مرّات في مفردات تدلّ على السيلان والتدفّق ليمثّل تردّداً نغمياً، وبما أنّ صوت العين الحلقي يخرج من أعماق الفم بشدّة فهو يتناسب مع شدّة تدفّق المياه وانصباب الدموع.

«أَتَمَتَلِي السَّائِمَةَ مِنْ رَعِيهَا فَتَبْرُك؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيبَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبُصَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فِيَهْجَع؟»⁶⁴

لقد تكرر حرف (من) الجار في هذا المقتبس، وهو يساهم في تضافر العناصر وانتظامها، فالسائمة تمتلئ من رعيها، والربيضة تشبع من عُشبها، وعلي (ع) يأكل من زاده، فبالرغم من الاختلاف في التجانس إلا أنّ حرف (من) بمثابة خيطاً منتظماً يربط هذه التجانسات الموزّعة في ثنايا النصّ.

«أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتَهُمْ بِمَدَائِكِي؟! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنَتْهُمْ بِزَخَارِفِك؟!»⁶⁵

«أين» هو اسم استفهام للسؤال عن المكان، وتكراره في هذا السياق يساهم في شحن الخطاب بإسقاطات نفسية توحى بالضياع والتشتت، ويضاعف في إسقاط اللوم والعتب.

«بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظْلَمَتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نَفُوسُ قَوْمٍ، وَ سَخَتْ عَنْهَا نَفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ؛ وَ نِعَمَ الْحَكَمُ لِلَّهِ. وَ مَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَ غَيْرِ فَدَكٍ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدِ جَدَثٍ»⁶⁶

في هذا المقتبس، تكرّرت مفردة (فدك) 3 مرّات، وجعل منها عليه السلام بؤرة مركزية يحاول أن يعبر من خلالها عن قناعاته وعدم رغبته في مظاهر الدنيا

ومفاتها. يلحّ الإمام (ع) على تكرار هذه الكلمة لرغبة ملحة في إظهارها حيث ترتبط بالغرض العام للنصّ.

- السجع

السجع من المحسنات البديعية اللفظية، وهو توافق في الحرف الأخير بين الكلمة الأخيرة في جملة ما مع الكلمة الأخيرة في الجملة اللاحقة؛ وهذا الأمر يُعتبر ضرب من ضروب الإيقاع المتوارث في النصوص الأدبية. نجد هذا الأسلوب حاضراً في رسالة الإمام علي (ع) لوالي البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري حيث يخلق أجواء موحية وحركات موسيقية تساهم في تناسق النصّ، وتنبعث من شعور المرسل لتنفذ إلى قلب المتلقي. من قوله عليه السلام:

«أَلَا وَإِنْ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَا بَطْمِرِيهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ»⁶⁷

السجع بين (طمره وقُرصيه)، خلق إيقاعاً متناسقاً زاد في تماسك هذه العبارتين وتعالقهما فضلاً عن تعميق الدلالة وتنظيم عملية التلقي عند المرسل إليه. «فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًا، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا»⁶⁸

السجع بين (تبراً، ووفراً، وطمراً) يرفد النصّ برنات متتابعة تشي بعمق الفكرة وثباتها لدى المرسل، ولأهمية هذا السجع ودوره المثير نرى الإمام (ع) يحرص على تأخير مفردة (طمراً) في سياق الكلام للحفاظ على إيقاع النصّ. «وَمَا أَصْنَعُ بِفَدِكَ وَغَيْرِ فَدِكَ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدِ جَدَثٍ»⁶⁹

هذا السجع بين (فدك وجدث) يترك تأثيراً عميقاً على المتلقي ويصوّر مدى الإحباط الذي ينتاب نفسية الإمام ويؤكد على كرهه الشديد لحياة الدنيا. «إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ، قَدْ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكَ، وَأَفْلَتُ مِنْ حَبَائِلِكَ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكَ»⁷⁰

في هذا المقبوس، نرى الإمام (ع) يخاطب الدنيا بنسق دلالي يعتمد فيه على السجع المثير في عدة جمل متتابعة مركزاً على ضمير (الكاف) العائد على الدنيا والذي يوحي بمكرها وخبثها، فهذا السجع يشكل إيقاعاً حاداً ملتهباً يلفت انتباه المتلقي ويشيره تجاه الدنيا ومفاتها.

- هذه الرسالة تشكّل وحدة دلاليّة متناسقة من خلال اعتمادها على جملة من الشبكات المترابطة والتي تحقّق جمال النصّ وتماسكه.
- إنّ أدوات الربط ساهمت مساهمة جليّة في تماسك أجزاء الرسالة وخاصة الواو إذ لعبت دوراً فاعلاً في تماسك النصّ وتناسقه، فربطت العناصر بعضها ببعض ممّا أدّى إلى تشكيل شبكة متّحدة الأجزاء داخل النصّ.
- نجد الخطاب في هذه الرسالة يعتمد على جملة من الإحالات التي لها دور فعّال في اتّساق النصّ وربطه، ومن أهمّ الإحالات التي تصادفنا في هذه الرسالة هي إشارات لنصوص سابقة بما فيها القرآن الكريم والشعر العربي القديم، ومن هذه الإحالات أيضاً، الضمائر والموصولات وأسماء الإشارة والشرط.
- ركّز الإمام على الاقتصاد اللغوي الذي يتناسب مع نفسيته القلقة والمنفعلة بسبب ذلك الموقف، فعمد إلى الحذف الذي أبعد النصّ عن الترهّل والركاكة، وتجنّب التكرار المخل بغية تحقّق عمليّة التماسك الذي يضمن فاعليّة النصّ وتأثيره على المتلقي.
- الانسجام الصوتي المتمثّل بالتكرار والسجع يُعتبَر من أهمّ وسائل التماسك النصّي في هذه الرسالة. فالتكرار قادرٌ على تحقّق التماسك النصّي عبر امتداد العناصر المتكرّرة فضلاً عن دوره الدلالي الفاعل في النصّ. والسجع يخلق أجواء إيقاعيّة تساهم في تماسك النصّ وتناسقه، وتنقل مشاعر المُرسِل وخلقاته إلى المتلقي.

الهوامش والإحالات:

1. ليلي توامة، التماسك النصي في صيدة "تأملات حزينة فيما حدث" للشاعر عبد العزيز المقالح، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف - بالمسيلة، الجزائر، 2017م، ص 5.
2. أحمد عزت يونس، العلاقات النصية في لغة القرآن الكريم، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط1، 2014م، ص 124.
3. الزمخشري، أساس البلاغة، ج2، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، ج2، 2000م، ص 213.

4. محمد خطابي، لسانيات النصّ: مدخل إلى انسجام الخطاب، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991م، ص 65.
5. شحدة فارغ وآخرون، مقدمة في اللغويات المعاصرة، عمّان، دار وائل للنشر، ط1، 2000م، ص 201.
6. إبراهيم خليل، نحو النصّ: النظرية والتطبيق، عمّان، أمواج للطباعة والنشر، 2014م، ص 11.
7. عثمان أبو زنيد، إطار نظري ودراسات تطبيقية، إربد، عالم الكتب الحديث، ط1، 2009م، ص 20.
8. نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النصّ وتحليل الخطاب (دراسة معجمية)، عمان - الأردن، عالم الكتب الحديث جدار للكتاب العالمي، ط1، 2009م، صص 47 - 48.
9. محمد الخطابي، لسانيات النصّ: مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 23.
10. حدة روابحية، آليات التماسك النصي في قصيدة المآب لإبراهيم ناجي، مجلة حوليات جامعة قالمه للغات والآداب، العدد 12، 2015م، ص 167.
11. الرضي الاسترباذي، شرح الكافية، ج1، تصحيح يوسف حسن عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1979، ص 91.
12. صبحي إبراهيم الفقهري، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر، 2000م، ص 258.
13. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 70.
14. المصدر نفسه، ص 70.
15. المصدر نفسه، ص 71.
16. المصدر نفسه، صص 70 و 71.
17. المصدر نفسه، ص 72.
18. خليل بن ياسر البطاشي، الترابط النصي في ضوء تحليل اللساني للخطاب، الأردن - عمان، دار جرير للنشر والتوزيع، ط1، 2009م، ص 165.
19. أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النصّ، القاهرة، كلية دار العلوم، د.ت، ص 8 - 9.
20. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 75.
21. المصدر نفسه، ص 72.
22. المصدر نفسه، ص 73.

23. كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، تحقيق سعيد حسن بحيري، القاهرة، مؤسسة المختار للتوزيع والنشر، ط2، 2010م، ص 54.
24. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 72.
25. المصدر نفسه، ص 70.
26. المصدر نفسه، صص 70 و 71.
27. المصدر نفسه، ص 72.
28. محمد الخطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 19.
29. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 70.
30. المصدر نفسه، ص 71.
31. المصدر نفسه، ص 72.
32. أمال مانع، التماسك النصي في قصيدة نزار قباني منشورات فدائية، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي، 2016م، ص 29.
33. عثمان أبو زنيد، نحو النص: إطار نظري ودراسات تطبيقية، ط1، 2010م، ص 107.
34. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 73.
35. المصدر نفسه، ص 70.
36. المصدر نفسه، ص 71.
37. مهدي المخزومي، النحو العربي نقد وتوجيه، ط2، بغداد، دار الشؤون الثقافية، 2005م، ص 307.
38. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 70.
39. المصدر نفسه، ص 72.
40. المصدر نفسه، ص 73.
41. المصدر نفسه، ص 74.
42. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار المعرفة، ص 36.
43. محمد الخطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 34.
44. الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية وفايزة الداية، دمشق، دار الفكر، ط1، 2007م، ص 146.
45. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 70.
46. المصدر نفسه، ص 75.

47. المصدر نفسه، ص 70.
48. المصدر نفسه، ص 72.
49. المصدر نفسه، ص 74.
50. المصدر نفسه، ص 70.
51. المصدر نفسه، ص 70.
52. محمد الخطابي، لسانيات النصّ: مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 25.
53. إبراهيم صبحي الفقهري، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، ص 43.
54. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 70.
55. المصدر نفسه، ص 71.
56. المصدر نفسه، ص 71.
57. المصدر نفسه، صص 72 و 73.
58. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، 1992، ص 332.
59. إبراهيم صبحي الفقهري، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، ص 22.
60. محمد الخطابي، لسانيات النصّ: مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 24.
61. إبراهيم صبحي الفقهري، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، ص 22.
62. نهج البلاغة، الرسالة 45، ص 72.
63. المصدر نفسه، ص 74.
64. المصدر نفسه، صص 74 و 75.
65. المصدر نفسه، ص 73.
66. المصدر نفسه، ص 71.
67. المصدر نفسه، ص 70.
68. المصدر نفسه، صص 70 و 71.
69. المصدر نفسه، ص 71.
70. المصدر نفسه، ص 73.